

تفسير ابن كثير

وَيَا قَوْمٍ هُذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ أَيَّةً فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ

عَذَابٌ قَرِيبٌ

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن

عاشر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل

عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي

القرى وما حوله وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاہب

إلى تبوك في سنة تسع قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع

عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس على تبوك نزل بهم الحجر

عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا

لها القدور فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهربوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل

بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا علي القوم

الذين عذبوا وقال "إنني أخشى أن يصييكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم" وقال أحمد

أيضاً حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر "لا تدخلوا على هؤلاء المعدبين إلا

أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيّبكم مثل ما أصابهم"

وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين من غير وجه وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا

يزيد بن هارون المسعودي عن إسماعيل بن أوسط عن محمد بن أبي كبشة الأنماري عن

أبيه قال لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك

رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى في الناس "الصلاحة جامعة" قال فأتيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة وهو يقول "ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم

"فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله؟ قال "أفلا أنتم بأعجب من ذلك: رجل

من أنفسكم ينتقم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فإن الله لا

يعبدأ بعذابكم شيئاً وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً "لم يخرجه أحد من أصحاب

السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم وقال الإمام أحمد

حدثنا عبد الرزاق حدثنا عمر عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر قال

لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال "لا تسألو الآيات فقد سأله قوم صالح

فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعקרוها

وكان تشرب ماءهم يوماً ويسربون لبنيها يوماً فعקרוها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت

أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله" فقالوا من هو يا رسول الله قال:

أبو رغال فلما خرج من الحرم أصاب ما أصاب قومه" وهذا الحديث ليس في شيء من

الكتب الستة وهو على شرط مسلم قوله تعالى "إلى ثمود" أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود

أخاهم صالحًا "قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" فجميع الرسل يدعون إلى عبادة

الله وحده لا شريك له كما قال تعالى "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه

لا إله إلا أنا فاعبدون" وقال "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا

الطاغوت" وقوله "قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية" أي قد جاءكم حجة

من الله على صدق ما جئتم به وكانوا هم الذين سألو صالحًا أن يأتيهم بأية واقترحوا

عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر

يقال لها الكاتبة فطلبوها منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تم خضر فأخذ عليهم صالح العهود

والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه

على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل

فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما

سألوا فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف

ثمود أن يؤمنوا فصدقهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر

بن جلهس وكان جندع بن عمرو بن عم له شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس

وكان من أشراف ثمود وأفضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال

في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله وكانت

عصبة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا عزيز ثمود كلهم جميرا فهم بأن يجيب ولو

أجابا لأصبح صالح فيما عزيزا وما عدلوا ب أصحابهم ذؤابا ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد

رشدهم ذبابا وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما

وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلونها فيملؤن ما شاء من أوعيائهم وأوانيهم

كما قال في الآية الأخرى "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر" وقال تعالى

"هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم" وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من

فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا

ومنظرا رائعا إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم واشتد تكذيبهم لصالح النبي

عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها قال

قتادة بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في

خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى "فكذبوا فعقروها فدمدم عليهم

رجمهم بذنبهم فسوها" وقال "وآتينا ثمود الناقة بمصرة فظلموا بها" وقال "فعقرنا الناقة" فأنسد

ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضي جميعهم بذلك والله أعلم وذكر الإمام أبو

جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها عنيدة ابنة

غم بن مجلز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح

عليه السلام وكانت لها بنتان حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد

رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال لها صدقة بنت المحيا بن زهير بن المختار ذات حسب

ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما

بقتل الناقة فدعت صدقة رجلاً يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقى فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحييا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزه بنت غنم قدار بن سالف بن جذع وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أئمه الذي ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجال يقال له صهياد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغوا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعه رهط وهم الذين قال الله تعالى "وكان في المدينة تسعه رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون" وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاواعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت من الماء وقد كمن لها قدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرمها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزه وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجهاً فسفرت عن وجهها لقدر وزمرةه وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرجت ساقطة إلى الأرض ورغبت رغبة واحدة تحذر سقبها ثم طعن في لبتها

فتحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلا منيعا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى

عبدالرازق عن عمر عمن سمع الحسن البصري أنه قال يا رب أين أمي ويقال أنه رغا ثلات

مرات وأنه دخل في صخرة فغاب فيها ويقال إنهم اتبعوه فعثروا مع أمه فالله أعلم. فلما

فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالح عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون فلما

رأى الناقة بكى وقال "تمتعوا في داركم ثلاثة أيام" الآية. وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء

فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا إن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن

كان كاذبا أحقنناه بناقه "قالوا تقاسموا بالله نبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك

أهله وإننا لصادقون ومكرروا مكررا ومكرنا مكررا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة

مكرهم" الآية. فلما عزموا على ذلك وتوافقوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكونا ببني الله فأرسل

الله سبحانه وتعالى ولله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم

وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم

صالح عليه السلام وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم

محمرة وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتابع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما

أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نسمة الله وعذابه عيادة بالله من ذلك

لا يدرؤن ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من

السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهرت النسوس في ساعة واحدة.